

المحور العاشر : العلاقات الثقافية المغاربية

برز دور العلماء في نسج التواصل بين الشعوب والحكومات المغاربية ، إذ كانوا يتنقلون بين المؤسسات العلمية الثقافية ، خدمة للعلم أو تقربا من السلطة . ومن نماذج العلماء الذين مثلوا ذلك الترابط نذكر :

1- الشيخ محمد بن علي الخروبي (توفي سنة 963هـ)

يعتبر مثالا للتواصل المغاربي يُدعى نزير الجزائر ، حيث سكن بها وطالت فيها إقامته، ونُسب إلى حواضر صفاقس وطرابلس والجزائر ، خطب في أحد مساجد الجزائر وشرح الصلاة المشيشية .

خدم الخروبي الوجود العثماني وخاصة في الجزائر خدمة جليلة بقلمه ودرسه وطريقته الصوفية ، الشاذلية ، سافر عدة أسفار إلى المغرب، حيث زار فاس مرتين، منها أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشريف ومراكش، وأخذ عنه علماء المغرب ، حتى توفي بالجزائر سنة 963هـ .

2- الشيخ سعيد قدورة: (توفي 1066هـ - 1656م)

هو سعيد بن ابراهيم بن عبد الرحمان، تونسي الأصل ، هاجر والداه للجزائر حيث ولد سنة 979 هـ. وبعد وفاة والده سنة 1001 هـ توجه إلى زاوية الشيخ أبي علي بن أبيهلواللمجاعي قرب تنس حيث مكث ثلاث سنين (1005 - 1008هـ)، عاد بعدها ، للجزائر ليتفقه على يد الشيخ محمد بن أبي القاسم بن إسماعيل المظماطي بالجامع الكبير ، ثم سافر في طلب العلم سنة 1012هـ إلى تلمسان ؛ فتتلمذ على يد الشيخ سعيد المقرئ، ثم إلى صحراء فجيح وتافيلالت وسجلماسة وواحة بني عباس حيث قابل شيخه أحمد بن عبد الله السجلماسي العباسي ثم منها إلى فاس، دامت رحلته أكثر من سبع سنوات قبل العودة إلى الجزائر. ومن شيوخه أيضاً إبراهيم بن الحسن بن علي اللقاني المالكي المصري (توفي 1041هـ).

عينه شيخه المظماطي خليفة له للتدريس بالجامع الأعظم ووكيلا لأوقافه ثم عين مفتيا للمالكية ابتداء من سنة 1028 هـ ، حتى وفاته سنة (1066هـ - 1656م) ودُفن بزواية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري.

وكان قدورة يحظى عند الباشوات لدرجة أنهم كانوا يقفون له إجلالا ويقبلون يده، ويقدمونه على المفتي الحنفي (شيخ الإسلام) الذي كان يمثل المذهب الحاكم.

3- الشيخ علي الأنصاري (توفي 1057هـ - 1648م)

فقيه علامة يُنسب لسعد بن عبادة السجلماسي الجزائري، نشأ بسجلماسة ثم ارتحل إلى فاس، وأخذ عن بعض مشايخها منهم "عبد الله بن طاهر الحسني، ابن أبي بكر الدلائي" ، قرأ على الأخير كتب البخاري ، الشفاء ، الموطأ ورسالة القشيري والتنوير والحكم، وعن أبي عباس أحمد المقرئ الموطأ والرسالة ومختصر خليل وابن الحاجب وغير ذلك. ثم سافر إلى الحجاز ليأخذ عن الغنيمي والأجهوري ، ودخل مصر سنة 1043هـ وقرأ بها، ثم عاد واستقر بمدينة الجزائر ، لإفادة طلبته ، بالعلوم

وكان على صلة وثيقة بحاكم الجزائر يوسف باشا (1647- 1650م) ، الذي كان يقرب العلماء لتأييدهم إياه ، من جهة والأنصاري كان هو أيضا بحاجة لقوة تحميه لغربته من جهة أخرى .

4- الشيخ أبو القاسم الزياني المغربي (1147 - 1249 هـ - 1734 - 1833م)

ولد في فاس بالمغرب أين تلقى العلم؛ فنال حظاً من الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق، رحالة ووزير وأديب ومؤرخ الدولة العلوية، من قبيلة زيان الصنهاجية نواحي فاس، ولد سنة 1147هـ، درس في القرويين، اتصل بالبلاط الملكي سنة 1169هـ، تقلد الولاية على وجدة وتازة ومكناس وطنجة وغيرها وعين كاتباً بالقصر الملكي.

وفي سنة (1200هـ-1786م) وجه سلطان المغرب محمد بن عبد الله (1790-1757م) الزياني سفيراً عنه إلى الخليفة العثماني عبد الحميد الأول. وعند العودة إلى فاس استأنف أعماله منتقلاً من منصب إلى آخر في عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي، لكن بعد وفاة هذا الأخير تعرض الزياني في عهد مولاي يزيد للسجن، ثم استأنف عمله بعد مجيء مولاي سليمان للحكم فعين على وجدة ثم لجأ إلى المغرب الأوسط فنزل بوهران ضيفاً على الباي محمد الكبير ثم التحق بتلمسان وقضى مدة طويلة بين علمائها، ثم قصد الجزائر فأكرمه أهلها وحكامها، حتى عاد للمغرب وتوفي في (1249هـ - 1833م)، تاركا خمسة عشر مصنفاً كبير الحجم.

هكذا قام علماء بلاد المغرب العربي بدور إيجابي عبر المجال الثقافي العلمي فربطوا علاقات بين الشعوب والسلطات، بواسطة مدارس تكوينهم أو دروسهم العلمية وحتى مواقفهم من قضايا مصيرية دينية وسياسية.